

## تفاوت بين "الاقتصاص القرآني" ومصطلح "التناص"

محمد زبير عباسي\*

مدخل

إن دراسة مصطلح "التناص" في العصر الحديث طفقت تعم جميع المنطلقات الجمالية والنصية، وباتت ملتقى جميع اللغات النصية التي تكون متوجة علاقات بين جملة وأخرى وبين نص وآخر، ومن منظور النص القرآني بين آية وأختها، وبين سورة وأخواتها، أخذ الباحثون يطلقون "النصوصية" أو "التناص" على "الاقتصاص القرآني"، هذه العمومية والشمولية قد أثارت ضجة كبرى بين أتباع القدامى ومؤيدي المحدثين. فالمحقق أن ثمة تعالق وترباط وتداخل بين الآيات والسور القرآنية، ولاسيما القصص الواردة في القرآن الكريم من أجل العلاقات النصية بينها، ومن ثم أطلق بعضهم مصطلح "التناص" على "الاقتصاص" الذي وضع في ضوء هذا السياق القصصي، فهل هذا الإطلاق صحيح أم أن هناك فرقا بين المصطلحين؟ للإجابة عن هذا السؤال ينبغي ملاحظة المسارين اللذين أصبحا موضع سؤال من وجه، وموضع عناية واهتمام من وجه آخر.

والمشكلة تكمن فيما زعمه بعض الباحثين الجدد والمؤيدين للحدائثة وما بعدها والمطبقون النظريات الحديثة على النصوص القديمة والمثبتون من خلال ذلك أن ما وصل إليه البحث الألسني الحديث اليوم ليس بجديد من حيث المنهج والدراسة بل قام القداماء باستيعاب ذلك تحت مسميات أخرى، فكأنهم أصلوا معاصرة المصطلح ليثبت أن التراث هو الذي أنتجه في التراث، فالأقتصاص مثلا مصطلح تراثي محض، إنه ناتج من سياقات قرآنية، حاول الباحثون النصيون إثبات المنهج النصي من خلال تتبع آثار التشابه والتضارب والتداخل والتعالق بين نص وآخر، انطلاقا من التناغم النصي بين النصوص إنهم زعموا أن "الاقتصاص" لدى النقاد القداماء عبارة عن مفهوم "التناص" لدى المحدثين، إنه من أمثل نماذج

---

\* محاضر بقسم اللغويات، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد - باكستان.

"النصوصية"، فكما وجد الاقتصاص في القرآن الكريم كذلك يوجد فيه "التناص" أو "النصوصية" أيضًا، ثمة بحوث ضخمة أجريت حول قضية التداخل تكاد تشمل جميع المصطلحات التي تتلاقى مع "التناص" على وجه من الوجوه، تلك البحوث حاولت إثبات مصطلح "الاقتصاص" بديلا للتناص في التوظيف والتصنيع والتأليف المتفاعل في النص القرآني. فما وصلت إليه تلك البحوث صار محور علاقات التواصل والتلازم والتداخل بين النصوص، وهذا التداخل بين النصوص يعني عملية المزج والهدم والبناء بين النصوص القديمة والجديدة، السابقة واللاحقة.

هذه المزاعم لا تقبلها طبيعة النص القرآني، ولا سيما في الأوضاع الحالية في سياق الاقتصاص القرآني، فالباحثون قد نسوا عند ملاحظة التشابه بين المصطلحين أصولهما وجذورهما وأسسهما، وبذلك وقعوا في الخطأ العلمي الدقيق عند المقابلة والمقارنة بين ذينك المصطلحين: الاقتصاص والتناص.

هناك مؤلفات عديدة تتناول موضوع النص والجملة، وتقوم بمقارنات موجزة وبسيطة بينهما، ثم تصل من خلال المقارنة بين النصين: الأجنبي والعربي، وكذلك الجملتين: الأجنبية والعربية إلى الانبهار المجهول والعقلانية الخاضعة للهنات البشرية والجحود المظلم، تلك المؤلفات خالية تماما من دراسة بعض القضايا نحو قضية "الاقتصاص القرآني" وغيرها التي كان لها دور أصيل في بناء فكرة النص والنصية والنصوصية العربية، مع أن هذه المؤلفات قد شملت مصطلحات بلاغية أخرى تجتمع مع النص الغربي وتداخل النصوص والتناص لمشاركات بينها وبين النص العربي، وهذا الأمر جعلني أبحث في طرفي "النص" العربي ما يسمى بالاقتصاص و"النص" الغربي (الأجنبي) ما يسمى بالتناص على أسس المقاربات والمفارقات بينهما.

#### الاقتصاص لغة واصطلاحا

كلمة "الاقتصاص" مشتقة من القص وهو تتبع الأثر وأن يفعل اللاحق مثل ما فعل السابق، يقول الناس: قصصت الشيء إذا اتبعت أثره شيئا فشيئا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهٖ﴾<sup>(١)</sup> أي: اتبعي أثره وتتبعي خبره<sup>(٢)</sup> أو تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه<sup>(٣)</sup>، والقصص كذلك تعني الأخبار المتبعة

١- سورة القصص، الآية: ١١.

٢- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٣٠٠. وينظر: أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج ٧، ص ٥.

٣- مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠٠. وينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج ٢٠، ص ٨٣.

والتداخلة بعضها مع بعض آخر<sup>(٤)</sup>.

فمن معاني "الاقتصاص" الأخذ والتتبع والحكاية والرواية، هذه المعاني في تفعيل عمليتها الدقيقة تعطي الدلالة للملفوظ من خلال تبادل علاقة "الأخذ" و"التتبع"، فاكتمال المضمون والدلالة مبني على التتبع الشعوري ويكون ذلك بالاقتراسات اللفظية أو المضمونية، والتتبع الشعوري واللاشعوري، ويكون ذلك في صورة الإيحاءات والإيحاءات والإشارات دون تنصيب أو تصريح.

أما في الاصطلاح فقال ابن فارس: "من نظم كتاب الله جل ثناؤه الاقتصاص وهو أن يكون كلام في سورة مقتصا من كلام في سورة أخرى أو في السورة معها"<sup>(٥)</sup>. وجاء في البرهان: "أو في السورة نفسها"<sup>(٦)</sup>. كقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْتَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(٧)</sup>، والآخرة دار ثواب لا عمل، وهو مقتص من قوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾<sup>(٨)</sup>.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا يَعْمَهُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾<sup>(٩)</sup> مقتص من قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾<sup>(١١)</sup> مقتص من أربع آيات قرآنية، لأن الشاهدين أربعة: الأول: الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَحَامَتُ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾<sup>(١٢)</sup>، والثاني: الأنبياء، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾<sup>(١٣)</sup>، والثالث: أمة محمد صلى الله

٤- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف،

القاهرة، ج ٩٣، ص ٣٦٥١، باب القاف.

٥- أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا، الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد محمد بسج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ١٨١.

٦- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج ٣، ص ٢٩٧.

٧- سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

٨- سورة طه، الآية: ٧٥.

٩- سورة الصافات، الآية: ٥٧.

١٠- سورة الروم، الآية: ١٦.

١١- سورة غافر، الآية: ٥١.

١٢- سورة ق، الآية: ٢١.

١٣- سورة النساء، الآية: ٤١.

عليه وسلم، كقوله تعالى: ﴿لَنَعْكُوْنَا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾<sup>(١٤)</sup>، والرابع: أعضاء الجسد، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٥)</sup>.

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصص الأنبياء وغيرهم موعظة وعبرة لأولي الألباب، لعلهم يعقلون بإجالة النظر في أحوال تلك الأمم، ويهتدون بإدارة العقل في أخبار الأنبياء عليهم السلام، خذ مثلاً قصة مريم عليها السلام، قد بينها الله عز وجل في عدة سور، إنها مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل<sup>(١٦)</sup>، وقد ذكر الله تعالى قصة حمل أمها بها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها خادمة بيت المقدس، كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٧﴾﴾، فكانت مريم عليها السلام إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة والتبتل، قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِحْسَانٌ وَإِنِّي جَاعِلٌ فَى ذُرِّيَّتِهَا نَبِيًّا وَكَانَتْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨﴾﴾، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا عليه السلام ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴿١٩﴾﴾، ثمة قصص أخرى وهي مستقلة سبقت في تضاعيف حكاية مريم عليها السلام، إنها متداخلة مع قصة مريم عليها السلام مما تفيد من قوة الارتباط وشدة الاشتباك نحو قصة زكريا وابنه يحيى عليها السلام، كقوله تعالى: ﴿فَتَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُقْلٌ مِّنْ قَبْلِي وَإِنِّي أَنَا الْكَافِرُ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٠﴾﴾، ثم شرع في قصة عيسى

١٤- سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

١٥- سورة النور، الآية: ٢٤.

١٦- ينظر: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٢، ص ٤١٧-٤١٨.

١٧- سورة آل عمران، الآيتان: ٣٥-٣٦.

١٨- سورة التحريم، الآية: ١٢.

١٩- سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

٢٠- سورة آل عمران، الآيتان: ٣٩-٤٠.

ابن مريم عليه السلام حيث قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۗ ﴾ (٢١)، وقال في معناه في سورة مريم: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (٢٢)، وكذلك قال: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَدْتِ فَرْحَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢٣).

ثم مرة أخرى يعود الحديث إلى قصة مريم عليها السلام في سورة آل عمران نفسها، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ (٢٤) وجاء شطر منه في سورة مريم عليها السلام مبينا كلامها عليها السلام كقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ (٢٥)، وأزيل هذا الشك والإغراب والإبداع الذي وقع في قلب مريم عليها السلام بها يلي: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢٦).

وجاء هذا الكلام في سورة مريم أيضًا كقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ﴾ (٢٧)، وقال في سورة يس: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢٨)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (٢٩)، وهلم جرا.

قصة مريم عليها السلام من أنبل القصص القرآنية وأشرفها شكلا ومضمونا، إنها أشد أثرا وتأثيرا على قارئها، ففي أسلوب هذه القصة البارعة من اتساق واتزان يبلوران عن حيك وسبك ومقامية وربط واتصال بين كلمات تألفت منها الجمل، وجمل تألف منها الكلام (الآيات). وقد يبدو للقارئ إذا قام بتحليل أي قصة من القصص القرآنية أنها متداخلة مع غيرها، ومتشابكة من أجل التماسك والتوافق والتطابق بينها.

٢١- سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

٢٢- سورة مريم، الآية: ١٩.

٢٣- سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

٢٤- سورة آل عمران، الآية: ٤٧.

٢٥- سورة مريم، الآية: ٢٠.

٢٦- سورة آل عمران، الآية: ٤٧.

٢٧- سورة مريم، الآية: ٩.

٢٨- سورة يس، الآية: ٨٢.

٢٩- سورة القمر، الآية: ١٥٠.

هذا العمل القصصي أو النصي مما يدخل "الاقتصاص" في حيز التناص والتعلق النصي في اللسانيات النصية لاقتراحه بأداة التقاطع والتداخل، والسبب الحقيقي الذي أثار هذا الجدل هو المعنى العادي للتناص، أي: استدعاء نص سابق ليتعلق مع النص الحالي من خلال أداتي الامتداد والاستجابة أو التأثير والتأثر.

فالتراث العربي مليء بنماذج ذوبان الفوارق والحدود بين الأجناس الأدبية، ومن المحقق إن هذا الذوبان المضموني والدلالي تارة والشكلي تارة أخرى يعني التعلق النصي أولاً، وامتصاص النص القديم ثانياً، وإعادة كتابة نص قديم في سياق جديد ثالثاً.

فالاتفاق في الأبعاد الخطابية للشفرة اللغوية يبحث عن ماهية النص ومعياريته واقتناصه وتناصه التي تتكون من المعايير السبعة مثل السبك (الربط) والحبك (التناسك) والقصدية والمقبولية والإعلامية (الإخبارية) والموقفية والتناص (٣٠)، "وأوثقها" هذه المعايير السبعة" صلة بعلم النفس رعاية الموقف والتناص (٣١). يقول سعيد بحيري في تعريف النص: "النص إذن وحدة كبرى شاملة لا تضمها وحدة أكبر منها. وهذه الوحدة الكبرى تتشكل من أجزاء مختلفة تقع من الناحية النحوية على مستوى أفقي، ومن الناحية الدلالية على مستوى رأسي. ويتكون المستوى الأول من وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية، ويتكون المستوى الثاني من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية المنطقية، ومن ثم يصعب أن يعتمد في تحليل النص على نظرية بعينها، وإنما يمكن أن تتبنى نظرية كلية، تتفرع إلى نظريات صغرى تحتية تستوعب كل المستويات" (٣٢). والنص بهذا التعريف كائناً ما كان فاعل في مجتمع مقرون بالتأثر والتأثير فيه بما يبدو في لغته وأيديولوجيته المقدمة. هذه القدرة على التفاعل تجعل المتلقي أو القارئ يتدخل في ذات "النص" من خلال تعامله مع الأنساق الثقافية على وجه معلوم أو مجهول، لأن خطي النص يعني المرور الآني والتعاقبي له، وهذا المرور في أفقه حدود لا يتجاوزها النص لكونه مفيداً في دوائر الزمان وفي تعاقبه حدود لا يعرفها النص بل في سبيل المعرفة إياها يفقد النص وجوده أصلاً، ويصبح جزءاً من كيان لانهائي.

هذا التأثير والتأثر في مفهوم "التناص" الذي يمثل الامتداد والاستجابة إذاً حول إلى "الاقتصاص" يعني أن مضمون النص القرآني امتداد للماضي، واستجابة للحاضر والمستقبل، هذه النتائج

---

٣٠- ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوندجان، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٤٥-١٤٦.

٣١- روبرت ديوجراندي، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ٨.

٣٢- علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، ص ١١٩.

النابعة عن إسناد النصية المعاصرة إلى النص القرآني وتأطيره بها لا تتناسب مع قدسية القرآن الكريم أصلاً. "وتجدر الإشارة إلى أن تحقق النصية لا يلزم تحقق المعايير السبعة في كل نص، إذ يمكن أن تتشكل نصوص بأقل قدر من هذه المعايير، ولكن بوجودها جميعاً يتحقق ما يسمى بـ: "الاكتمال النصي"، ولعل أهم أربعة معايير تحقق نصية النص تتجسد في الربط والتناسك والقصدية والموقفية"<sup>(٣٣)</sup>. فالحبك والسبك يرتبطان بذات النص، والقصدية والمقبولية يتصلان بمن يتعامل مع النص منتجاً ومتلقياً، أي أن الفاعل أو المتفاعل يكون منتجاً ومتلقياً، معطياً وآخذاً، مرسلًا ومرسلًا إليه، متكلمًا ومخاطبًا، أما الإخبارية والموقفية والتناصية فإنها تلتزم بالسياق اللغوي أي "النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم"<sup>(٣٤)</sup>، والسياق غير اللغوي أي "ربط العناصر اللغوية، كلمة كانت أو جملة، بالعالم الخارجي أي تتمثل في بيان العلاقة بين اللغة وخبراتها - بكل مظاهرها - في الحياة". أو ما "تتمثل في ربط الأحداث اللغوية بالمواقف الاجتماعية المحددة التي تقال فيها هذه الأحداث"<sup>(٣٥)</sup>.

فالمشكلة لا تتجلى في ترجمة أحد المصطلحين إلى العربية بل إنها أزمة المناخ الثقافي والثقافات التي أفرزت ذلك المصطلح، وشكلته وجسدته أزمة اختلاف حضاري وثقافي بالدرجة الأولى، وهذه الأزمة تكاد تستعصي على الحل إذا لم يقم الحديث عن المنهجية السائدة في العملية الإنتاجية للمصطلحين، وبسبب البعد عن هذه المنهجية ذهب كثير من الباحثين المحدثين إلى اعتبار "التناص" أو "البينصية" في القرآن الكريم وإطلاقه على مناسبات الآيات والسور، وبالضبط الاقتصاص القرآني، إنهم زعموا أن "الاقتصاص" كما هو موجود في القرآن الكريم كذلك "التناص" موجود فيه، لأن "الاقتصاص" يمثل "التناص" أو العكس للأدوات المشتركة من التناسب والتلازم والتلاحم بين المصطلحين، وعند استساغتهم ذلك تناسوا أن إطلاق "التناص" على "الاقتصاص" يستلزم العناصر التي لا بد منها في ذات "النص".

فلا يقال إن "الاقتصاص" هو "التناص" أو بالعكس لاختلاف منهجي المصطلحين، يقول عبد العزيز حمودة عن موضوع الخلافات الجوهرية بين الثقافتين العربية والغربية: "فإن أهم ما يمكن إبرازه في هذا السياق هو أن الحدائث الغربية إفراز لأنظمة ثقافية مختلفة: اجتماعية واقتصادية وسياسية وفلسفية،

٣٣- بشرى حمدي البستاني، وسن عبد الغني مختار، "في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم: دراسة نظرية"، مجلة

أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد ١١، العدد ١، ص ١٨١.

٣٤- محمد أحمد حماد، مدخل إلى التفكير الدلالي، دار الثقافة العربية، ١٩٩٨م، ص ٣١.

٣٥- المصدر السابق، ص ٣٦.

وهي أنظمة لم تعرف أو يؤسس لها في الثقافة العربية، وهو حقيقة يحذر شكري عياد، بحسه النقدي الناضج وانتمائه العربي الواضح، من تجاهلها" (٣٦).

"ولكن القارئ العربي الذي يخوض في هذه المذاهب لا يحسن به أن ينسى أن ثمة خلافات هائلة بيننا وبينهم. فالظروف التي يعيش فيها القارئ العربي والكاتب العربي تتسم بفراغ هائل. في الغرب والشرق هناك خيارات واضحة تفرضها نظم سياسية حديثة قوية، لها تقاليد كما لها تطلعاتها، ويفرضها تراث ثقافي حي تعهدته أجيال من العلماء بالتحقيق والدرس. أما في عالمنا العربي فالقديم مجهول أو شبه مجهول والجديد ضعيف مترنح..." (٣٧).

ولا يخفى على القارئ المعاصر أن هناك من اختلاف الثقافتين ما لا يحتاج إلى تأكيد إلا أن هناك جزئية صغيرة ولكنها بالغة الأهمية في ذاتها، وهي موقف شكري محمد عياد في الثقافة العربية بأنها قديمة مجهولة أو شبه مجهولة، فالثقافة العربية معروفة، ومكتباتها زاخرة وغامرة وملئية (٣٨)، ولكن المشكلة التي تجعلها دونية هي أنه قد تم وضعها دون محاولة حقيقية لتطوير تلك الدراسات الأكاديمية المتخصصة والتأسيس على تلك البحوث بما يتفق مع روح العصر ومتطلبات العالم الحديث (٣٩).

والقرآن الكريم كما يرى بعضهم بأنه "يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، بحيث يكون تعريفه حداً حقيقياً" (٤٠). إلا أن ابن خلدون عرفه قائلاً: "كلام الله المنزل على نبيه، المكتوب بين دفتي المصحف، وهو متواتر بين الأمة" (٤١).

---

٣٦- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص ٥٢.

٣٧- شكري محمد عياد، دائرة الإبداع: مقدمة في أصول النقد، دار إلياس العصرية للطباعة والنشر، ١٩٣٦م، ص ٨٣.

٣٨- ينظر: مصطفى لبيب عبد الغني، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، سلسلة العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة لكتاب مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٣٩- وهذا ما يقصده شكري عياد، فوصفه الثقافة العربية بأنها مجهولة يرجع إلى تقصير المحدثين الذين ينظرون إلى التراث نظرة فيها تكبر، فهم لم يتجهوا إليه ولم يحاولوا الوقوف على منتجات العاملين في حقله، فهناك مدارس حديثة واتجاهات معاصرة تهتم بالتراث وتحاول أن تبني عليه.

٤٠- مباحث في علوم القرآن، ص ١٥.

٤١- ابن خلدون، مقدمة، وهي الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تصحيح وفهرسة: أبو عبد الله السعيد المندوه، المكتبة التجارية مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٤هـ /

١٩٩٤م، ج ٢، ص ١١٨.



وفيا بدا لي أن أصحاب علوم القرآن من المفسرين والأصوليين قد اختاروا مصدر "الافتعال" من مادة "ق، ص، ص" أي، قص وقصص لبنائه على لبنات أساسية تبلور عن الأغراض التي تساق لها القصة والقصص في القرآن الكريم، إنها لم تقصد لذاتها، وإنما لما وراءها من عبر ونذر، فالاقتصاص من القصة، والقصة تعود إلى الكلام/النص، بينما التناص فإنه من النص، والنص يعود إلى الكلام/النص، فإذا كان كلا المصطلحين يعود إلى الكلام/النص فإن لكل منهما مفهومه الخاص، وشتان ما بينهما، فمفهوم "الاقتصاص" ينحصر في أبنية لفظية، تلك الأبنية هي التي تسوغ للقارئ القصة، وإلى هذا الحد تكون القصة جامعة للأطراف اللفظية والدلالية، الجمالية والمعنوية، الثقافية والحضارية، وعند توجيه القصة إلى الاقتصاص سوف يتغير المسار، لأن الاقتصاص يعني النص الذي يشتمل على شفرات لغوية، وشظايا معجمية إلا لاحتوائه تصور الحكاية يتحول إلى القصة، ثم للقصة مفهوم ثقافي وحضاري، وهذا المفهوم برمته لا يصدق على الحكايات الواردة في النص القرآني فلذلك يسمي العلماء قديما وحديثا تلك القصص القرآنية بالاقتصاص.

وهذا المفهوم يقتضي أن الاقتصاص لا يتجاوز دوائر اللفظ، حتى إنه مغلق على البيانات التي وردت في الآيات القرآنية، فلا يعدو قاعدة اللفظ أصلا.

أما المفهوم الثاني للنص فإنه يشمل النصوص التي سبقت النص الحاضر، ويدل على أن العلاقة بين النص الحاضر والنصوص المتقدمة هي علاقة الإنتاجية، وهذه العلاقة في ذاتها تشير إلى مستوى التفكير والتشريح للنص، أي: أن كل نص يكون نتاج نص آخر، ويتوالد منه، ترى جوليا كريستيفا هذه العلاقة بين النص والنصوص قائلة: "كل نص يصاغ مثل فسيفساء من الاقتباسات، فكل نص امتصاص من الآخر" (٤٢).

ههنا يلتقي النص بهذا المفهوم الكريستوي مع النص البارثي والدريدي، كان رولان بارث (٤٣)

---

٤٢- Kristeva, Julia. *Desire in Language: A Semiotic Approach to Literature and Art*. Columbia university Press, New York, 1080. p. 66.

٤٣- رولان بارث، يعد قدوة الحدائين العرب، إنه نشأ في بايون وباريس، فكان حدائيا (بنوييا) ثم تحول إلى التفكيكية بعد أن شاهد تناقضات ومشاكل بنيوية أدبية. نال شهادة في الدراسات الكلاسيكية من جامعة السوربون وبعد الحرب العالمية مباشرة درس في جامعتي بوخارست والإسكندرية، ودرس منذ عام ٦ في الكلية العملية العليا في باريس، وفي سنة ١٩٧٦م أصبح أستاذا في علم السميولوجيا الأدبية في كوليج دي فرانس. توفي رولان بارث بعد أن صدمته سيارة وكان يعبر الشارع المواجه للكوليج. ومن مؤلفاته: الكتابة درجة الصفر (Writing Degree Zero)، مقالات نقدية (Critical Essays)، عناصر السميولوجيا، رولان بارث/ رولان بارث (Roland Barthes by Roland Barthes)،

الصورة، الموسيقى، النص (Image, Music, Text). ينظر:

Lane, Richard, J. (2006). *Fifty Key Literary Theorists*, Rutledge, Taylor & Francis Group New York and London, p. 15-19.

يرى أن النص في كلية أو جزئية منه يعتمد على القارئ، إنه يحسب القارئ منتجاً للنص وليس مستهلكه ومستعمله فقط<sup>(٤٤)</sup>، إنه يرى أننا نعيش الآن زمن الإعادة والتكرير، ولاسيما بعد هذا القرن الأخير<sup>(٤٥)</sup>، حتى يقول: "إن النص ليس نسيج خط من الكلمات، يكشف عن المعنى اللاهوتي، ولكنه فضاء متعدد الأبعاد، تتلاقى فيه عدة كتابات (صادمة وبناءة)، إنه يكون نسيجا من الاقتباسات والاستشهادات المأخوذة من المراكز التي لا حصر لها"<sup>(٤٦)</sup>.

وبذلك يثبت أن التناص ليس إلا من معايير النص، فالتناص هو المعيار الأوحده الذي أضفى على النص مفهوماً جديداً ملائماً للاستمرارية واللانهائية والثقافية والحضارية، وكذلك جعل التناص النص موضع قراءة إثر قراءة، وموطن أثر إثر أثر، فيدل ذلك على أن النص لا يقتصر على الفضاء الجملي بل إنه يخرج إلى نطاق واسع إلى الفضاء الكلي، وهو الفضاء الحضاري للنص، فالنص لا يوجد دون عناصره التي تسهم في تشكيله وتجسيده، ومن أهم تلك العناصر التي ترسم "النص" هو القارئ (المتلقي)، هذا المتلقي له دور في إنتاج النص فهو كاتبه أو مؤلفه لأنه يصوغه مرة أخرى من خلال إعادة توزيعه على وحدات لغوية وغير لغوية، شعورية ولا شعورية.

إذا قيل: إن النص تناص فيوحي بتناص الكلام، ووصف الكلام بالتناصية يشير إلى أن الكلام ليس بنهائي أبداً، بل إنه كيان استمراري وتفاعل. وإذا حكم بأن النص اقتصاص فينطبق ذلك على النص القصصي (القصص الواردة) في كتاب الله تعالى، لكن تسميته بالاقتصاص مبني على فاعلية التتبع بين الأحداث والتقاطع بين الحكايات والتداخل بين الأخبار.

فالتناص فضاء/ تاريخ بينما الاقتصاص فإنه ملفوظ/ كلام، فالبون بينهما شاسع، فكيف يصح أن يقال: إنهما متماثلان مع تلك المفارقات الأساسية بينهما؟

فمن وجهة النظر القائلة إن "الاقتصاص" غير "النص" يمكن انفصال شظية "النص" عن شظية "الاقتصاص"، بينما "التناص" لا يصح انفصامه عن قضية "التناص"، فالاقتصاص يعود إلى القصة، والقصة في تحرير معناها المعجمي تشمل من الجوانب ما يأتي نحو: الشمول، والتتبع، والمحاكاة، والترداد،

---

Barthes, Roland. (1990). S/Z. Translated: Richard Miller. Foreface: Richard Howard. First published – ٤٤  
in the United Kingdom by Blackwell Publishing Ltd, p. 4.

Barthes, Roland, (1977). *Image Music Text*. Essays selected and translated: Stephen Heath, Fontana – ٤٥  
London, p. 156.

*Image Music Text*, p. 146. – ٤٦

والتقاطع، والنقل، والسبك، والحبك، والمقصدية، والإعادة، والاستعانة، والاستمداد، وهكذا دواليك. إنها تجعل "النص" صالحا لأن يوصف بالقصصي، فيقال: النص القصصي. فالافتصاص من منطلق التداخل والتلاقح والتناقص يجتمع مع "التناصية" إلا أن هناك حدودا تقف دون إطلاقه على القصص الواردة في النص القرآني، لأنه إذا صح سحب مصطلح "التناص" بمفهومه عند علماء اللغة الغربيين فإن ذلك يعني سلب القدسية عن القرآن الكريم ومعاملته معاملة النصوص البشرية وتأييد مقولة إنه من عمل الرسول صلى الله عليه وسلم كما زعم وأرجف بذلك بعض المستشرقين من أمثال ويلش معلقا على الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آيَاتُ فَكِّ أَقْرَبِهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝﴾ وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأُولَىٰ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٧﴾ "لم ينكر القرآن أن قوما آخرين قد أعانوا محمدا على كتابة القرآن وأن القرآن من أساطير الأولين، طلب محمد كتابتها أو استنساخها، فكانت تملى عليه أول النهار وآخره" (٤٨).

أو أن يكون صدى للبيئة التي عاش فيها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أو أن يكون منتجا ثقافيا أو مرآة عصر أو مصر بعينه. ولا شك في أن الذين يطبقون مصطلح "الافتصاص" بمصطلح "التناص" لم يدبر بخلداهم هذه النتيجة، ولكنها نتيجة واقعة وحاصلة إذا حاولنا المساواة بين المصطلحين. إذا درس هذا النص بإسناده إلى القدسية، واعتباره نصا مقدسا تختلف النتيجة بأسرها عما إذا نظر إليه بوصفه نصا بشريا، لأنه ليس نصا عاديا، إن له قانونا يجب رعايته عند دراسته، لأن "القصة" في القرآن الكريم حقيقة لا خيال، إنها ليست بخاضعة لفن وخلق وابتكار، فمرامي القصة القرآنية لم توضع على أبنية التصوير الفني الذي لا يعتني بالواقع التاريخي وصدقه بل القرآن الكريم "تنزيل من عليم حكيم، ولا يرد في أخباره إلا ما يكون موافقا للواقع" (٤٩)، ولعل الفرق بينها سوف يتضح بكثير إذا روعيت بين هذين المصطلحين عند ارتباطهما بـ: "النص" تلك العناصر التي لا بد من وجودها في صياغة متكاملة للنص والقصة، لا يخلو النص من عامل الزمان والمكان تأثيرا في احتوائه، بينما نجد "القصة" القرآنية فبالرغم من أنها نص تخلو من هذا العامل.

٤٧- سورة الفرقان، الآيتان: ٤-٥.

٤٨- محمد محمد أبو ليلي، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي: دراسة نقدية تحليلية، دار النشر للجامعات، مصر، ط ١،

١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ١٠٢-١٠٣.

٤٩- مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠٤.

وكذلك لا ترمز هذه الإشارات القصصية إلى التلاحم الدلالي لبعدها عن مواقع النصية ومواطنها المحبوبة وموضوعها المسبوكة، وكذلك إنها لا تفيدهم التأليف والتجميع والتكثيف والتصوير والاستنساخ وغيرها من العناصر التي تقوم عليها القصة البشرية.

اختار القرآن الكريم أسلوب "الاقتصاص" لأغراض يجهلها تماما "التناص"، ومن تلك الحكم والغايات مثلا: "بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، قوة الإعجاز، الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس، اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة" (٥٠).

زعم كثير من الباحثين المطابقة بين "التناص" و"الاقتصاص" بحجة أن "التناص" بمفهومه الذي يدور حول حضور نص في نص آخر إنما هو مفهوم عرفته العربية تحت ظاهرة "الاقتصاص" التي تناولها ابن فارس أثناء حديثه عن ظواهر النظم القرآني، ذهب الدكتور ياسر عبد الحسيب رضوان في بحث العلاقة بين الاقتصاص والتناص إلى أن القرآن الكريم قد اشتمل على ظاهرة التناص الداخلي بين آياته الكريمة عندما استحضرت بعض نصوص الآيات الكريمة كلمة أو جملة أو بعض جملة في نصوص آيات أخرى في سورة واحدة، أو سورتين أو سورتين شطرا يحتاج إلى بيان لوجود علاقة ما بين النصين، المقتص والمقتص منه، المبين والمبين عنه.

حينما لاحظ المفسرون هذا الأسلوب القرآني سموه بـ: "الاقتصاص" أي: معبرين عن علاقات وطيدة بين آية وأخرها، بين سورة وأختها... في سياقات القصة وأحداثها، هذه العلاقة بدأت تعرف في القرن العشرين بـ: "النصية" و"النصوصية" و"التناصية" في رأي بعض اللسانيين المحدثين، فالأقتصاص القرآني يتعاقب بين ترابط الأحداث في سورة أو سورتين فأكثر.

لكن الاقتصاص لدى علماء العربية مقتصر على النص القرآني، ولا تعدو دائرته هذا النص، يعني المصطلح في كلام ابن فارس علاقة الاقتطاع والتحويل بين النصين أو الآيتين اللتين أنبسطت بها فيسمى ذلك بالاقتصاص، أي العلاقة التي تصل بينها وتضعها في محيط دلالة واحدة، لأن كلتا الآيتين تبيان الأخبار الماضية، كانت الأخبار متتابعة ومتزامنة، فالشفرتان اللغويتان باتت تجمعان تلك الأحداث المتناثرة والشظايا المبعثرة من خلال علاقات الترابط والتجسيد والتشكيل والتجسيم والاقتطاع والتحويل والتعلق والتلاحم.

ثمة يختلف "الاقتصاص" عن "التناص" في طريقة العلاج النصي، يعالج "التناص" النص عبر الإشعاعيات النصية التي تنجلي فيها جدليات البناء النصي صوتا وصيغة، لفظا وصورة ودلالة، فاعلة ومنفعلة، مؤثرة ومتأثرة، وفي الأخير تجعل هذه الجدليات النصية النص أو النصوص نتاج ماض ومستقبل، وتوجب نصية النص لامتناسص مادته من الماضي، وتحولها إلى المستقبل، هذان الكيانان من الماضي والمستقبل يعدان من داخل النص، لأن عناصر النص تتطلب تناصه بغيره، وقد مضى عن وظيفة التناصية أن ذاك التغير والتحول والتقلب في النص أو النصين أو النصوص يكون من سلالة النص، لو لم تكن تلك العلاقة الحميمة بين النص وغيره لفات النص وجوده، أما الاقتصاص فإنه بعيد عن هذه الفلسفة العقلانية البحثية، إنه يجري في القرآن الكريم، وهذا الكتاب المبين لا يعرف سواه، إذا فمن أين تحدث علاقة التعالق والتداخل بينه وبين غيره، فالغير معدوم، والقرآن موجود، والعلاقة بين المعدوم والموجود مهملة.

فالتعالق الذي بدأ يؤسس عليه هذان المصطلحان ليس سوى نتيجة التطور الهائل في الترجمة والاتساع الثقافي، مادام الأمر عالقا بالمحتوى الترجمي ينبغي أن يعاد النظر في تعريف المصطلحين بدقة متناهية لتكون النتيجة دقيقة ومحددة، ولا تعدو منظومة الحدود العلمية بينهما، فالباحثون الذي حملوا "التناص" على مصطلح "الاقتصاص" قصدوا بذلك ظاهرة التداخل بين آيات القرآن الكريم واستحضار بعضها بعضا في صورة كلمة أو جملة أو بعض جملة، في سورة واحدة أو أكثر من سورة، فالنص المقتص والمقتص منه لا يخرجان عن آيات القرآن الكريم، يقول الدكتور ياسر عبد الحسيب رضوان عند حديثه عن علاقات التماسك والاحتباك بين الآيات القرآنية: "وكان ابن فارس أبو الحسين أحمد (ت ٣٩٥هـ) رائدا في هذا السياق عندما تحدث في كتابه الصحابي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها عن باب من أبواب النظم القرآني سماه "الاقتصاص" الذي يعتبر من وجهة نظر المؤلف (ابن فارس) الصورة التراثية للتناص في اللسانيات النصية المعاصرة، وقد اتخذ المؤلف نقطة انطلاق لدراسة العلاقات الرابطة بين الآيات القرآنية من خلال مبحثي: "المتشابه اللفظي، والوجوه والنظائر اللذين يمثلان الفصلين الثاني والثالث..." (٥١).

ذكرت في القرآن الكريم قصص الأنبياء وغيرهم لإخبار الناس وإعلامهم عن الدروس التي تتجلى فيها علاقات ربط واتصال أيا كانت خفية أو جلية، تلك العلاقات الخفية والجلية المتواجدة في النصوص المتداخلة بعضها مع بعض آخر تنبعث من نقطة ارتكاز التعالق والتلاحم والتماسك بين النصوص

على مستوى أبعاض الجملة أو أنماط النص كله، وهذا النوع من العلاقة المسماة بالنصية والنوصية في النص والنصوص كان مألوفاً لدى علماء العربية، إنهم درسوا تلك العلاقة تحت مصطلحات عديدة، مثل الموازنة والاحتذاء والتوارد والاستعانة والاستمداد والأخذ والإيحاء والانتباس والتشابه وغيرها، هذه المصطلحات وأشباهاها كلها لا تجري في القرآن الكريم أصلاً، ما خلا مصطلح "التشابه أو المشابهة" الذي أشير إليه مقدماً، هذا التشابه من حيث الملفوظ والمضمون يجري في القرآن الكريم، لكن إذا نظرنا إليه من إطار التداخل الشعوري أو اللاشعوري الذي تتجاوز دائرته إلى المؤلف والقارئ، ويجعل كليهما جزءاً لا ينفك من النص، فلا يجري التشابه أو المشابهة من هذه الناحية في القرآن الكريم لابتعاده عن هذه المواصفات النصية، فالقرآن الكريم يوصف بالتشابه، ولكنه لا يوصف بالتناص، فالتشابه العربي ألا وهو يقتصر على الجملة والكلام لا يلائم التشابه الأجنبي الغربي الذي لا يقر باستقرارية الجملة والكلام.

فالنص بالمعنى العربي القديم لا يعني "النصية" التي نتجت من تقويض بنوية "النص"، فكلا النصين، العربي والأجنبي لا يخلوان من العملية الإبداعية إلا أن النص العربي لدى النقاد القدامى يتكون من ثلاثة أمور:

الأول: الفكرة، والثاني: التعبير، والثالث: التهذيب، يقول القاضي الجرجاني عند التكلم على الشعر وصنعه: "إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، ويقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان" (٥٢). فنص الجرجاني يدل بكل قوة أن نتاج الإنسان سواء أشعر أو نثر أو نثر يستقطر مداخلات الطبع والرواية والذكاء والدربة وغيرها، والقرآن الكريم حينما نزل بلغة طائفة قريش بلغت أقصى درجة في البيان، وقضى على المواصفات البشرية جمعاء، وأزال تلك الشكوك الثائرة لعلها تقفز إلى أذهان قاصرة عن درك مزاياه بتحديات صريحة. فلا يوائم الاقتصار القرآني تلك السمات، ثم يتبين الجرجاني بنفسه تلك الخصال قائلاً: "والعلة فيها (الحالة) أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية، ولا طريق للرواية إلا السمع، وملاك الرواية الحفظ، وقد كانت العرب تروي وتحفظ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض" (٥٣).

---

٥٢- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم،

علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٢٣.

٥٣- المصدر السابق، ص ٢٣.

هذه العناصر بكاملها تحدث في الكلام من الالتئام عبر التخيير والإبدال والاستبدال والتنقيح والتهذيب وما إلى ذلك، إنها محاور الاختيار التي تعتمد الذكاء اللامع في القائل، نظرا إلى تلك العناصر الإنسانية والأنثروبولوجية والاجتماعية تنقطع العلاقة بين النص والله تعالى، لأن النص ليس إلا الحادث، والله تعالى ظاهر من جميع شوائب الحدوث، والكلام من صفاته، فكيف يوصف ذلك بالنص، لأنه يتحول إلى "التفكيكية" التي لم يكن يعرفها النص العربي أصلا.

والنص البينصي أو التناصي يعني أن جميع الخطابات والنصوص متداخلة ومتعاقبة بعضها مع بعض آخر<sup>(٥٤)</sup>. وهو نفس المعنى الذي أشارت إليه جوليا كريستيفا عندما عرفت "النص" بالنصوصية والتناصية قائلة: "إن النص إنتاجية، يعني ذلك أولا أن علاقة النص باللغة التي يتموقع فيها هي علاقة إعادة توزيع، وثانيا: إن النص لوحة فيسفسائية من الاقتباسات، إنه متناص، أي مجموعة من الخطابات والنصوص المأخوذة من أدوار خارج ذلك النص تتقاطع وتتلاقى مع ذلك النص في فضائه"<sup>(٥٥)</sup>. هذه الفيسفسائية تدل على سمتين أخريين للنص، وهما التحويل transformation والامتصاص absorption اللتان تجعلان "النص" نتاج نص آخر، وبذلك يثبت أن "كل نص يتوالد، يتعالق، يتداخل، وينبثق من هيولى النصوص في مجاهيل ذاكرة المبدع الإسفنجية التي تمتص النصوص بانتظام وبثها بعملية انتقائية خبيرة فتشغل هذه النصوص المستحضرة من الذاكرة داخل النص لتشكل وحدات متعالية في بنية النص الكبرى، وتتجسد في مصطلح يدعى بالتناص. والتناص لا يكون بالمضمون فقط وإنما يكون بالمفردات، بالتركيب، بالبناء، بالإيقاع، بالمحاكاة، بالمعارضة إلخ... ولأن النصوص السابقة متعاقبة مع النص اللاحق بالغياب فهي وحدات متعالية في بنية النص، والمعرفة الموسوعية للناقد هي الكفيلة بالقبض على الغياب واستحضاره. ونكرر، كل نص لاحق منبثق من هيولى نصوص سابقة"<sup>(٥٦)</sup>.

وهكذا رأى النقاد أمثال رولان بارت Roland Barthes (١٩١٥-١٩٨٠م) أن يكون النص منتج عقلانية القارئ والمتلقي، ولتأكيد وظيفة القراءة والتلقي في نصية "النص" أعلن بارت لأول مرة "موت

٥٤ - Anthony W. Lee, Samuel Johnson as Intertextual Critic, *Texas Studies in Literature and Language*,

Vol. 52, No. 2, Summer, 2010, pp. 129-156 (Article), Published by University of Texas Press, p. 145.

٥٥ - Kristeva, Julia, (1980). The Bounded Text, *Desire in Language: A Semiotic Approach to Literature*

and Art, ed by Leon S. Roudiez, New York, Columbia University Press. P. 15.

٥٦ - صبحي الطعان، "بنية النص الكبرى"، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٣، العدد ١-٢، يوليو - سبتمبر / أكتوبر - ديسمبر،

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، ١٩٩٤م، ص ٤٤٦.

المؤلف "the death of the author"، إنه قصد بذلك ولادة القارئ والمتلقي، ودورها البارز في صناعة النص، "لأنه (بارث) يعني أن اللغة هي التي تتكلم في النص وليس المؤلف، وأن دلالة النص لا تنبع من منتج، بل من علاقته بالمتلقي أو القارئ" (٥٧). أعاد بارث النص إلى ظاهرة "اللغة" لكونها نابعة من البيئة والمجتمع، بينما أعاد المتكلم إلى الكلام، فإرجاع النص إلى المتكلم يعني قصره على الانغلاق، وبذلك يصبح النص مغلقاً، وبنائياً صرفاً، وهذا ما عارضه بارث ورفض انغلاق النص، وأسس عليه تفكيكية النص وتشرحيته، فقال: إن النص ليس إلا نتاج القراءة، والقراءة عملية مستمرة، مما تعني أن النص لا تكون إلا ظاهرة مستمرة، ولها وظيفة توالد وتلاقح، ولا تتحقق تلك الوظيفة إلا بحدوث الترسيب والإزالة، التحويل والامتصاص فيه، فمن إطار النص البارثي يلزم القول بأن النص لا يكون نقياً أبداً من مداخلات المرسل إليه (المخاطب)، بل ما يزيد حيوية النص إنها مداخلات القارئ (المتلقي)، فلا يتصور النص دون قراءة تتلو قراءة، تليها قراءات، والنص القرآني بعيد عن تلك التأويلات النصية الفلسفية البحتة.

ومن سمات "النصية التفكيكية" أيضاً أن يكون "النص" صالحاً للقضاء على التراث، لأن النص مهما يكن شكله لا يخلو من "التناص والبينصية"، يقول بارث عند الحديث عن المقاربات بين النص: "فقيام التناص يلغي التراث ويقضي عليه" (٥٨). فالإقصاء والقضاء على التراث في نظر بارث يوحي إلى دور المتلقي التناصي في تجسيد "النص" ونصيته، لو لم تكن النصية لما كان النص أصلاً، فالنصية تعني صلاحية تلقي النص وامتصاصه وتشربه خصوصاً آخر، وفيما يرى الباحث هنا إن التلقي بالمعنى غير البنائي يعني إحلال المتلقي محل المبدع حتى أصبح التلقي "إعادة إنتاج كاملة لعملية الإبداع الذي يقوم بها الفنان، فمحا بذلك الحدود بين خلق الجديد واستيعاب ما تم خلقه، وبلغ التطرف بأخرين حدا جعلهم يؤكدون أن النص الذي يبدعه فنان ما، لا يمكن أن يتلقاه على نحو مكافئ إلا متلق يطابق عالمه النفسي والروحي العالم النفسي والروحي لمبدعه. وهم يشيرون إلى أن المتلقي يجب أن يمتلك قدرة كقدرة المبدع على أن يعيد في وعيه تجسيد الحياة المصورة في النص، وكذلك يجب أن تكون قدرته على التخيل وتداعي الأفكار وما شابه ذلك" (٥٩).

٥٧- فؤاد المرعي، "في العلاقة بين المبدع والنص والمتلقي"، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٣، العدد ١-٢، يوليو - سبتمبر/

أكتوبر - ديسمبر، الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، ١٩٩٤م، ص ٣٥١.

٥٨- رولان بارث، درس السيميولوجيا، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال للنشر،

المغرب، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٦٤.

٥٩- فؤاد المرعي، "في العلاقة بين المبدع والنص والمتلقي"، ص ٣٥٥.



إن النص الغربي عبارة عن رسالة لغوية تشغل حيزا معينا فيها جدلية محكمة مضمفورة من المفردات والبنى النحوية، وهذه الجدلية تؤلف سياقاً خاصاً بالنص نفسه "عالم النص"، فينبغي إذاً أن يكون لكل نص هدف وبناء محكم ومساق، ومن ثم لا ينبغي أن توصف بنية ما بـ: "النصية" ما لم توجد خاصيته المهمة وهي مفاده الاتصالي، وهذا المفاد الاتصالي لا يتحقق إلا من مكافأة التلقي للنص الإبداعي، ولذلك لا يقال أبداً إن المتلقي مجرد "مستقبل" سلبي، "فتبعاً لموقفه من الحياة وموقعه الفكري ونظراته الجمالية يتحدد اتجاه المبارزة الفكرية بينه وبين المبدع، إما نحو الاتفاق وإما نحو الصراع والتناقض" (٦٠).

أما الواقع القرآني فإنه يرفض تماماً مداخلات هذا التلقي السردية، أولاً: إنه نص ثابت غير قابل للتأويل الذي يخرج من إطار قدسيته، ثانياً: إنه نص لا يخضع للنظم المنهجية السائدة في تاريخ نصية "النص" التي ترى أن كل نص يكون نتاج تجربة إنسانية، تاريخية، ثقافية، ترتبط بعلاقات متناسبة مع شخصية المتلقي، فالقرآن الكريم ليس كيان خبرة أو تجربة، ليس كتاب تاريخ أو ثقافة. ثالثاً: إن المتلقي من منظومته السابقة يكون له دور في تمييز موقع اجتماعي وجمالي، والقرآن الكريم قد أوقع متلقيه في حيرة ودهشة من بلاغته الصافية، وأسلوبه الرزين، وجماله الرصين، وبيانه اللطيف، وفحواه المتميز، فكيف يمكن لهذا الإنسان العاجز عن البلوغ إلى أقصى طرف منه أن يسود شطراً منه بصنعه اللاتقة؟ رابعاً: إن المتلقي قد يتغلب بسبب قدرته على تجسيد حقيقة الحياة ومهارته الخارقة على طرد نص المبدع أو قبوله إياه إذا ارتضت به نفسه - معاذ الله - لا يمكن أن يتصور مثل ذلك في النص القرآني.

ولكل "نص" سمات تخصه، فمنها: الاختلاف والإرجاء، يقول جاك دريدا (٦١) بشأن سمة "الاختلاف": "فالدوال - وهي العلاقات، أو الكلمات، أو الرموز - تختلف بعضها عن بعضها، ولا يتضح معناها إلا من خلال هذا "الاختلاف"، ويأخذ هذا "الاختلاف" في النص الأدبي عادة شكل "التقابل" أو

٦٠ - المصدر السابق، ص ٣٥٧.

٦١ - جاك دريدا فيلسوف فرنسي تفكيكي من مواليد الجزائر هاجر إلى فرنسا عام ١٩٥٩م، وأصبح محاضراً في جامعة السوربون Sorbonne (١٩٦٠-١٩٦٤م)، طور دريدا نظرية نقدية معروفة بـ: إعادة التركيب، التفكيك، التفويض Deconstruction وأبدع هذا المصطلح في ضياء أعمال هيدجر وهوسرل. يحسب دريدا من كبار نقاد ما بعد البنوية Post-structuralism ويعد كذلك النموذج الأمثل للتداخل الكامل بين الفلسفة والنقد الأدبي. يبدو من أعمال دريدا ونتائجه أنه ناقد يتعامل مع النقد كفيلسوف، وفيلسوف ينقل مقولاته الفلسفية إلى الدراسات الأدبية. ومن أهم مؤلفاته: حول علم الكتابة (Of Grammatology)، الكتابة والاختلاف (Writing and Difference)، المواقف /

الظروف (Positions)، ينظر: Fifty Key Literary Theorists. pp. 73-77.

"التضاد" (٦٢). هذا المصطلح لا يعني "العدم" عند دريدا، ولكنه يعني إعادة البناء، وهذا المعنى لا يجري في اقتصاص القرآن الكريم لعدم تطابقه معه أصلاً.

فالافتصاص عبارة عن النص القصصي أي ربطه بوحدات القصة وحدها، وهذا ما يظهر من كلام ابن فارس، وكذلك يبدو من كلام ابن أبي الإصبع المصري حيث يفسر "الإيجاز" متناولاً ضمنه وظيفته "الاقتصاص"، فيقول تجاه إيجاز القصص القرآنية: "أن يقتصر المتكلم قصة بحيث لا يغادر منها شيئاً، في ألفاظ قليلة موجزة جداً، بحيث لو اقتصها غيره ممن لم يكن في مثل طبقته من البلاغة، أتى بها في أكثر من تلك الألفاظ" (٦٣). فالإيجاز في أداة "الاقتصاص" عند ابن أبي الإصبع يختص بالنص القصصي القرآني لانطوائه معنى الشمولية والجامعية، وهاتان السمتان من سمات القصة القرآنية الموجزة، فكلمة "القصة" تطلق على القصص القرآنية تغليبا، وإلا فإنها تخلو من جميع الممارسات البشرية التي لا تخلو من العلاقات المفترضة بين النص المبدع والنصوص المستهلكة، لأن "القصة عمل أدبي بصور حادثة من حوادث الحياة أو عدة حوادث مترابطة يتعمق القاص في تقصيصها والنظر إليها من جوانب متعددة ليكسبها قيمة إنسانية خاصة مع الارتباط بزمانها ومكانها وتسلسل الفكرة فيها وعرض ما يتخللها من صراع مادي أو نفسي وما يكتنفها من مصاعب وعقبات على أن يكون ذلك بطريقة مشوقة تنتهي إلى غاية معينة" (٦٤). عند دراسة القصة القرآنية يجب استبعادها من قضية الزمان والمكان، لأن القصة القرآنية تشتمل على قضايا وأفكار تحوي

---

٦٢- محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجليزي - عربي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوندجان، ط ١، ١٩٩٦م، ص ١٩. وينظر في تفاصيل نظرية "الاختلاف" لدريدا كتابه: المواقف Positions (١٩٨١م)، هذه النظرية تثبت عدم وجود معنى محدد للكلمة. ومن ثم يتأكد أن هذا النظر في الكلمة، الجملة، النص لا يلائم طبيعة النص القرآني، لأنه كلام محفوظ، وله معان ودلالات لا تنقص ولا تزيد، إلا أن من سمات إيجازه أنها تتطابق مع جميع حوادث الزمان، يبدو للناظر فيها أنه كلام نزل للحادثة التي صادفها، وهذا كاف للمتعمق فيه أنه ليس كلام بشر، يضطرب حيناً عند مواجهة ظروف صعبة، ويسكن حيناً عند مواجهة حالات حسنة. وينظر أيضاً في شرح المصطلح واستعماله عند دريدا: محمود الربيعي، "مداخل نقدية معاصرة إلى دراسة النص الأدبي"، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٣، العدد ١-٢، يوليو - سبتمبر / أكتوبر - ديسمبر، ١٩٩٤م، ص ٣٢٢.

٦٣- ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إيجاز القرآن، تحقيق: حفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ص ٤٥٩.

٦٤- محمد عبد المعتم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، طبعة مكتبة الأزهر، القاهرة، ج ٢، ص ٤٣٣.

الكون كله، وتحيط بالزمان والمكان، تتوافق مع كل حادثة مشابهة لصدق الواقع بطريقة مقنعة<sup>(٦٥)</sup>، فالإقتصاص القرآني يعني حصره واقتصاره على النص الأوحد، وبالذات النص القرآني، هذه العلاقة بين النصوص القصصية أو الآيات القصصية تعني "الإقتصاص" بغض النظر عن التلاحم الثقافي والتعلق الحضاري والتداخل التاريخي، لا يعرف "الإقتصاص" هذه الكيانات النصية أصلاً، ولذلك أجمع العلماء منذ نزول القرآن الكريم على أنه ليس كتاب قصص أو تاريخ أو ثقافة أو غيرها. إنه كتاب مبارك ليتدبر الخلق في آياته وليتذكر أولوا الألباب، فلا يصح قطعاً افتراض علاقة اتصال وانفصال، هدم وبناء، امتصاص وتحويل أو علاقة تفاعل وحوار بين اقتصاصات النص القرآني، وإن افترضت علاقة تفاعل وحوار بين تلك الاقتصاصات أو القصص القرآنية للزم حينئذ تفاعل هذا النص مع النصوص الأخرى، فالنص ينطوي دائماً على عدة عصور ولا بد أن تتقبل أية قراءة هذه الحقيقة وتنطلق منها"<sup>(٦٦)</sup>.

فثبت من ذلك أنه لا يصح إطلاق "التناص" على "الإقتصاص" نظراً إلى العوامل والأصول التي تكون "النص".

هنا فروق عديدة تميز بين "الإقتصاص القرآني" و"التناص الغربي". فاختيار كلمة "الغرب" صفة للتناص إشارة إلى أن "التناص" هنا جاء مقابلاً لمصطلح القرآن أي أن "التناص" ليس من التراث العربي الإسلامي بل إنه مصطلح أنتجه الغرب في إطار خاص يقوم على قوائم الفرق بين الثنائية السويسرية، اللغة والكلام، الذي تبعه البنيويون، فجعلوا اللغة مصب نشاطات المجتمع، والكلام موطن أفكار الفرد ثم خصصت اللغة بنظم تجسدها نحو علم اللغة والنفس والأنثروبولوجيا والاجتماع والتاريخ والثقافة وهلم جرا. لو لم تكن تلك العلوم لما كانت اللغة، فاللغة مجموعة نشاطات هذه العلوم التي تتداخل وتتقاطع، ومن ثم جاء "التناص" نتيجة تداخل العلوم والاختصاصات. أما التراث العربي الذي يقوم على دعائم الملفوظ القاموسي فأطلق عليه الجملة والكلام لا يجعل النص سوى احتياكها في أقصى درجة من التنظيم.

المفارقات بين منهجي النصين: النص الإلهي والنص البشري تتضح من خلال المقابلة والمقارنة

بين ثنائيات تالية:

---

٦٥- سيد قطب، القصة القرآنية وأغراضها وخصائصها الفنية وتصويرها: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٦٦- حسام أحمد فرج، نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص النثري، تقديم: سليمان العطار، ومحمود فهمي حجازي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ١٩٦.

المنهج

القرآن الكريم

غير القرآن (النص البشري)

سمات النص الإلهي	سمات النص البشري
- نص موجود دون سابق ولاحق، ليس نتاج إعادة أو استعادة أو ترداد أو استمداد	- نص لا وجود له في ذاته دون مزج وهدم وبناء نصوص آخر
- كلام الله ليس نثرا ولا شعرا، إنه قرآن ولا يسمى بغير هذا الاسم	- كلام الإنسان لا يخلو من أحد الجنسين: النثر أو الشعر
- الإعجاز الغيبي، والعلمي في الكون والحياة والطب، واللغوي	- خلو الكلام (النص) عن الإعجاز الغيبي والعلمي واللغوي...
- كلام الله الأحد	- تأليف الإنسان
- التحدي القائم الباقي	- عدم صلاحية التحدي
- عدم القدرة على الإتيان بمثله	- القدرة على الإتيان بمثله
- عدم التداخل مما فيه تكليف شعوري أو لاشعوري	- التداخل مما فيه تكليف شعوري أو لاشعوري
- أحادي الوجه	- حوارى الوجه
- الاتساق والاتزان والجمال المتلائم	- عدم الاتساق والاتزان
- الظهور والثبات	- الجمال المضطرب
- علو المصدر	- علاقة التفاعل بين النصين القديم والجديد
- عدم التعالق والتفاعل بين النص القديم والجديد	- الامتصاص والتشرب والتحويل والتحول
- عدم تصور السابق واللاحق في إطار هذا النص	- السابق واللاحق

إن القرآن الكريم نص وحيد، محرر من قيود الزمان والمكان، بينما غير القرآن فإنه يعم النص الإنساني، والنص الإبداعي والمبتكر، والنص المقدس المحرف، والنص الماضي والحاضر. بناء على ما تقدم من عناصر النص ومكوناته في التراث العربي ووضع النص بجملته ملاحظه وسأته إزاء النص الغربي، فإن النص العربي لم يعد "نسيجاً من العلاقات اللغوية المركبة التي تتجاوز حدود الجملة

بالمعنى النحوي للإفادة"<sup>(٦٧)</sup>. كذلك لم يعد يقتصر على الظهور والوضوح والانكشاف... "بل صار الشكل اللغوي (الصوتي، الكتابي) الظاهر على تركيب مخصوص بنمط ترتيبي ثابت، بحيث يستقضي جميع مرادات ناصه"<sup>(٦٨)</sup>.

فالنص القرآني نص لا تتلاءم معه أبعاد المعاصرة والحدائثة مثل نسيان النص الأول، إنتاج النص النص الثاني (الجديد)، علاقة المزج والهدم بين النصين السابق واللاحق، عدم القدرة على إدراك النص الأول، ويتم النص الأول، انغلاق النص من وجهه، وانفتاحه من وجه آخر، قدرة القارئ الخارق على ملء الفراغات النصية، سمة الإنتاجية والاختلاف والإرجاء في النص، رجوع النص إلى النص العالي وهو التاريخ والثقافة، التناسب بين النصين القديم والجديد، نتاج الاتباع والامتصاص والترسيب، المداخلة الواعية واللاواعية، استفادة القائل الأول من سابقه... إلخ فإسناد بعض العناصر إلى النص القرآني يقضي نهائياً على قدسيته، مما يؤدي إلى توجيه النقد إليه وهذا بدوره يؤدي إلى انسحاب النقد إلى الذات الإلهية - أعاذنا الله من القول بهذا - وبالذات تلك التهم تتوجه برمتها إلى ذات الله سبحانه وتعالى.

لملاحظة دقيقة في واقع "النصية" التي تقوم باجتثاث جذور قداسة النص القرآني وتؤدي إلى حط مكانة نصيته عند وضعه إزاء تلك المظاهر النصية المعهودة بين قائلها أختار "المكون الإعلامي الإخباري" مثلاً من المكونات النصية، وهذه السمة النصية موجودة في القرآن الكريم بأكملها، انطلاقاً من هذه الفكرة حاول الباحثون تطبيق سيات النص المعاصر ومعايره على النص القرآني، ثم ذهبوا إلى تطبيق مكونات نصية النص الحديث بأسرها على القرآن الكريم، إنهم عدوا الشفرة المحذوفة أو المقدرة التي يفهمها المخاطب جزءاً من الوحي المتلو، وجعلوا ذلك ضرورياً لتحقيق عملية الاتصال وخصوصية الإعلام، "وإذا كانت الدلالة المركزية للوحي هي "الإعلام" فإن من شرط هذا الإعلام أن يكون خفياً سرياً. ونستطيع أن نقول بعبارة أخرى: إن الوحي علاقة اتصال بين طرفين تتضمن إعلاماً - رسالة - خفياً سرياً. وإذا كان "الإعلام" لا يتحقق في أي عملية اتصال إلا من خلال شفرة خاصة، فمن الضروري أن يكون مفهوم الشفرة متضمناً في مفهوم الوحي، ولا بد أن تكون هذه الشفرة المستخدمة في عملية الاتصال والإعلام شفرة مشتركة بين المرسل والمستقبل أي بين طرفي عملية الاتصال (الوحي). ونجد مثل هذا الاستخدام في القرآن في قصة

٦٧- عمر محمد أبو خزيمة، نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى: سورة البقرة نموذجاً، عالم الكتب الحديث، الأردن،

١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٢٤.

٦٨- المصدر السابق، ص ٣١.

زكريا ومريم بصفة خاصة... والإشارة إليه - إلى عيسى الطفل - تتضمن رسالة فحواها "لا تسألوني وأسألوه هو" وهي رسالة أدركها قومها فكان ردهم: كيف نخاطب طفلاً. إن الرسالة المتضمنة في "إشارة" مريم لقومها تجعل هذه "الإشارة" وحيًا مثل إشارة زكريا لقومه طالبا منهم التسبيح" (٦٩).

هنا ألفت الانتباه إلى تعريف "الوحي" المتفق عليه لدى الجمهور، "وبما أن مصدر الوحي رباني يعلو على التاريخ والزمان والمكان، فهو يستشرف الحقيقة من عل، بل هو الحق، وكل ما سواه في عالم الزمان والمكان محتاج إليه. لذلك كان الوحي أرقى منزلة وله الأولوية أمام العقل والواقع مادام "الكلي" أعظم وأشمل وأكمل من "الجزئي" (٧٠). فلا يصح قطعاً التداخل بين الكلام الإلهي والمخيل البشري فضلاً عن إعداد هذا الحساب الذهني والثقافي من الوحي ذاته.

بيد أن النص القرآني له تعالق وثيق بالظروف الثقافية والمناسبات التاريخية والأحوال الاجتماعية لا يكاد يخلو الأمر من القسّمات والملاحم التي جاءت بها المعاصرة النصية، ولا سيما ما جاء به أبرز المصطلحات في الدرس اللساني الحديث، وهو "التناص"، وهو التعالق النصي بين نص وآخر أو تداخل النصوص بما يعنيه من حضور نص بين نص آخر، استدعاء أو تأثيراً، حضوراً جزئياً أو كلياً (٧١).

فالنظرة الأولى في هذا المفهوم التناصي تحقق أن النص القرآني وبالذات النص القصصي، أو النصوص القصصية الواردة في سياقات قصص قرآنية تتصف بالتداخل والتعالق والتقاطع، وربما قيل: إنه يمكن في هذا الإطار أن يسمى "النص القصصي القرآني" بالتناص كما يسمى ذلك بالاقتران، أو يقال: إن "الاقتران" تسمية قديمة لمصطلح "التناص" المعاصر، ولعل الدافع الحقيقي إلى هذا القول هو تجريد النص القرآني من خصوصية قدسيته وألوهية مصدره، لأن كثيراً من الدراسات التي انبثرت مبادرات "النصية القرآنية" جاءت على شاكلة النصية الشكلانية أو الحدائية أو التفكيكية لا تكاد أن تخرج من تأطير النص القرآني "نصاً لغوياً ينتمي لثقافة خاصة" (٧٢). "وعلى ذلك لا يمكن أن نتحدث عن لغة مفارقة للثقافة والواقع، ولا يمكن من ثم أن نتحدث عن نص مفارق للثقافة والواقع أيضاً مادام أنه نص داخل

٦٩- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ص ٣٦-٣٧.

٧٠- المصدر السابق، ص ٨٦.

٧١- محمد عبد المطلب، قضايا الحدائنة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوندجان، مصر، ط ١، ١٩٩٥م، ص ١٣٩.

٧٢- مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، ص ٢١.

إطار النظام اللغوي للثقافة. إن ألوهية مصدر النص لا تنفي واقعية محتواه ولا تنفي من ثم انتباهه إلى ثقافة البشر" (٧٣).

فالنص الجديد أي الذي ظهر بمفهومه الحديث في أواخر عقد الستينات في القرن التاسع عشر نوع من الإنتاجية Productive، إنه نتاج قراءات ذات اتجاه تعددي/ بوليفوني/ تعدد الأصوات Polyphony (٧٤) على مستوى الدال والمدلول "بحيث تبدو الكلمة داخل النص وكأنها تعبر عن أصوات متعددة أو على الأقل تسعى لأن تكون موقع لقاء ثقافات ومواقف متعددة" (٧٥). هذه التعددية تعني الدائرة المتطورة للتناص والنصوصية، ثم أخذ علماء العربية القدامى أمثال ابن جني وابن طباطبا وقدامة بن جعفر وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني وغيرهم هذا المعنى فدرسوها دراسة واعية، واستنتجوا من ذلك أن التداخل لا يخلو من أحد أمرين: التداخل على مستوى الدلالة (المعنى)، والتداخل على مستوى اللفظ (الكلمة) مما يعني استحضار المعاني القديمة بجملتها أو بعضها في الخطاب الشعري أو النثر الجديد، وقد توصل إلى هذه الفكرة علماء العربية القدامى منذ زمان، يقول الدكتور عبد المطلب ممهدا لذلك: "وقد انعكس هذا الإحساس على الدارسين القدامى، حيث دارت ملاحظاتهم حول تداخل المعنى أحيانا، وتداخل اللفظ أحيانا أخرى، ومن ثم كانت هذه الملاحظات مفتاحا لمقولة "القدماء والمحدثين"، ثم مقولة "السراقات" وما يتصل بها بعد ذلك" (٧٦).

ومن الحري هنا أن أنقل مقال ابن خلدون الذي يفرق بين مصدرية الكلام البشري والوحي الإلهي، فالإنسان كما يرى: "من جنس الحيوانات وأن الله تعالى ميزه عنها بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على انتظام وهو العقل التمييزي، أو يقتنص به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه وهو العقل التجريبي، أو يحصل به في تصور الموجودات غائبا وشاهدا على ما هي عليه وهو العقل النظري.

٧٣- المصدر السابق، ص ٢٧.

٧٤- يقول باختين في شرح مصطلح "تعدد الأصوات": إن الرواية عمل يتسم بتعدد الأصوات فيه، والصوت لدى باختين لا يقتصر على المستوى اللغوي بل يتضمن أيضًا الانتباه العقائدي والسلطة في المجتمع. ينظر: المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجليزي-عربي، ص ٧٤.

٧٥- حمد الحمداي، "التناص وإنتاجية المعاني"، مجلة علامات في النقد، ج ٤٠، م ١٠، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ - يونيو ٢٠٠١م، النادي الأدبي بجدة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٦٤.

٧٦- قضايا الحدائنة عند عبد القاهر الجرجاني، ص ١٣٨.

وهذا الفكر إنما يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه، ويبدأ من التمييز فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبدئه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة، وما حصل له بعد ذلك فهو بها جعل الله له من مدارك الحس والأفئدة التي هي الفكر. قال تعالى في الامتنان علينا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (٧٧) فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولى فقط لجهله بجميع المعارف، ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتبه بآلاته، فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها.

وانظر في قوله تعالى مبدأ الوحي على نبيه: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٧٨) أي أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلًا له بعد أن كان علقة ومضغة، فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتي والعلم الكسبي، وأشارت الآية الكريمة إلى الامتنان عليه بأول مراتب وجوده وهي الإنسانية وحالاتها الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدء الوحي. وكان الله عليها حكيمًا" (٧٩).

فالافتصاص لا يتحدد في دوائر شفرة معجمية أو شظية نحوية أو تركيبية لغوية بل إنه يجري حتى في منظومة الكلمة، والكلمة حسب تعريف النحاة العرب تكون من الأحادية، أي: أحادية اللفظة، وتكون تعبيرا عن صاحبها/ كاتبها/ مؤلفها/ قائلها، بينما "الرواية" التي أضحت مناسبات الحوارية والتعددية الباختيانية فإنها تعتمد على ما سماه باختين<sup>(٨٠)</sup> "أسلبة الأساليب" أي "إدماج عدد من الأساليب الموجودة

٧٧- سورة الملك، الآية: ٢٣.

٧٨- سورة العلق، الآيات: ١-٥.

٧٩- مقدمة، وهي الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٢، ص ١١٠.

٨٠- ولد ميخائيل باختين (١٨٩٥-١٩٧٥م) في مدينة أوريول Oryol/Orel في روسيا Russia، ودرس في جامعة أوكرانية تقع في مدينة أوديسا، المعروفة بـ: جامعة أوديسا Odessa University، ثم التحق بجامعة سانت بطرسبورغ الحكومية Petrograd (St Petersburg) University ودرس فيها الآداب القديمة والفيلولوجيا. كان باختين تفكيكيا مبكرا إلا أنه اكتشف ذلك عندما نشرت كتاباته وترجمت إلى اللغة الإنجليزية. ومن أهم أعماله التي نشرت باسمه أو الأسماء المستعارة: مشاكل في شعرية دوفستكي (*Problems in Dostoevsky's Poetics*)، الفرويدية: الناقد الماركسي (*Freudianism: A Marxist Critique*, V. N. Voloshinov, 1927)، المنهج الشكلي في نظرية الأدب (*The Formal Method in Literary Scholarship*, P.N. Medvedev, 1928)، نشر باختين بعض مؤلفاته/ أعماله بهذين الاسمين المستعارين: ميدفيدف Medvedev (Bakhtin/Medvedev) و Volosinov (Bakhtin/Volosinov)، يقول تودوروف عن ذلك: "ونكتشف اليوم أن عددا من كتب باختين طبعت مصدرة بأسماء المساعدين! (ميدفيدف وغيره). ينظر: ليون سمفيل، آفاق التناسية، ص ١٠٥. ضمن مقالات "آفاق التناسية" المفهوم والمنظور لـ: محمد خير البقاعي. ينظر:



سلفاً في الحقل الاجتماعي ضمن البنية الأسلوبية العامة للرواية على سبيل المثال<sup>(٨١)</sup>. إن "التناص" لا يماثل "الاقتصاص" من هذا الجانب لارتباطه بالنص، والنص ليس الكلمة تماماً، ثم علاقة "الاقتصاص" بالكلمة تعني علاقة مضمونية فحسب، أي إذا وردت القصة أو أشير إليها في آية من الآيات القرآنية ثم جاء ذكرها ثانياً في آية أخرى في نفس السورة أو في السورة المتجاورة أو المتباعدة، فالعلاقة بين هذه الآيات تعني علاقة الاقتطاع والتحويل أي أن مضمون هذه الآية تتعلق بمضمون الآية الأخرى، وهذا التماثل بين مضموني الآيتين مثلاً لا يعني أبداً نمطية التأثير والتأثير لأن الله بريء من ذلك، وبالتالي لا يعني هذا الانسجام بين مضموني الآيتين أنه قد أصاب قائلها شيء مما دفعه إلى هذا الإرجاء والإرجاع أو الاختلاف والتطواف بين الآيات والسور والأجزاء، وكذلك لا يعني هذا التداخل بين دالتي الآيتين أن صاحبها قد جمعها حسب إحساسه بالضرورات والاحتياجات التي عايشها، فالترتيب القرآني توقيفي كما أجمعت عليه الأمة، ولكنه قد تأخر نزوله لمقتضى الحكمة الربانية، وقد أوكل الله أمره إلى خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فنزل القرآن الكريم رويداً رويداً، وهذا التدرج في النزول دفع بعض الضعفاء إلى القول والأقوال في القرآن الكريم، فلا ريب في كون القرآن الكريم كلاماً إلهياً قديماً كقدمه، إن القرآن الكريم من صفات الله تعالى بجملة أبعاضه وأبعاده، إنه ليس وحدة تسلسل آخر كما قال النصيون في النص بأنه ليس إلا سلسلة من العلاقات مع نصوص آخر. ليس القرآن الكريم نصاً متداخلاً، إنه مادة موحدة، ذاتا مستقلة، ليس نتاج مقتطفات بشرية، ومعتقدات إنسانية، وآثار تاريخية مثل نص صانعه الإنسان.

فقيمة النص القرآني تختلف بناء على جنسه وسياقه عن جميع النصوص الأدبية الأخرى لخلوه من المداخلات والشواذب، فالأدوات التي تحقق المداخلات النصية هي الإعادة، والصرف<sup>(٨٢)</sup>، والتحويل<sup>(٨٣)</sup>، والتأثير، والتسريب<sup>(٨٤)</sup>، والتشريب<sup>(٨٥)</sup>، والتفريع<sup>(٨٦)</sup>، والعودة<sup>(٨٧)</sup>، والانصراف، والتحول، والتأثر،

- 
- ٨١- "التناص وإنتاجية المعاني"، مجلة علامات في النقد، ج ٤٠، م ١٠، ربيع الآخر ١٤٢٢هـ/ يونيو ٢٠٠١م، ص ٦٦.
- ٨٢- كلمة "الصرف" ليست بالمعنى المعهود لدى النحاة واللغويين، وهو علم تعرف به أبنية الكلام واشتقاقه، بل إنها توحى بالتبديل والتوجيه والتصريف والتحويل في تصاريف القول وشظاياها.
- ٨٣- ظاهرة التحويل ههنا تدل على ظاهرة النقل والإحالة والتبديل، فهي تدرس في واقع النقد النصي قضية الرؤية الحوارية الفاعلة في نسج النص ونصيته.
- ٨٤- قضية "التسريب" عند النقاد النصيين تعني الإدخال النصي، أي: إدخال نص في نص حتى تتم النصية المنتجة النص بكامله.
- ٨٥- وكلمة "التشريب" تعني المخالطة والتشعيب، وهذا المعنى لا يتحقق في النص دون المداخلات والتكرير والمعاودة.
- ٨٦- أداة "التفريع" في السياق النصي تشير إلى التشعيب أو جعل الشيء ذا فروع. وهذا المصطلح أيضاً مما يشير إلى سمة...

والتسرب، والتشرب، والتفرع، والاختلاف، والإرجاع، والإبداع، والإمداد، والاستمداد... إلخ، لأن طبيعة المصطلحين متنافرة، فطبيعة "الاقتصاص" تقتضي آية أو جزءاً من السورة أو نصاً لها وحدة ومضمون ورسالة، بينما طبيعة "التناص" فإنها تقتضي "بين النص" أي: الفضاء الواقع بين طرفي "النص"، وبعبارة يسيرة إقصاء النص والنصية، "لذا فإن النص المتداخل هو نص يتسرب إلى داخل نص آخر، ليجسد المدلولات، سواء وعى الكاتب بذلك أو لم يع" (٨٨). إن النص القرآني ليس موروثاً فلا يكون الاقتصاص كذلك، بينما "النص العادي" فإنه مركب رموز ما بعد البنوية Poststructuralism لكونه نتاج تواصل شعوري ولا شعوري.

وبطبيعة الحال يأخذ المسلم كل شيء يرويه القرآن الكريم على عواهنه دون أن يعمل فيه النظر، بينما يعمل كل واحد النظر، وقيم الوزن في الجنس الآخر من "النص"، وذلك لأن القرآن الكريم هو كلام الله - جل وعلا - الأزلي، غير المخلوق، وأوحاه الله تعالى عن طريق جبريل الأمين إلى محمد نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم.

فـ: "الاقتصاص" جزء من العلوم التي يؤدي الوحي الوظيفة الرئيسة فيها، بينما "التناص" فإنه نتاج الموجة المادية الإلحادية التي سادت أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. إن النص الإنساني مبني على دوائر الاستفادة والحس والعقل، "أما الوحي بوصف مصدره الإلهي فهو معرفة فوق الزمان والمكان مؤثرة غير متأثرة" (٨٩).

فالحديث عن هذه التعددية/الحوارية الثقافية والأيدولوجية وكذا الأصوات في النص الأدبي

---

...الإنتاجية المزيجية بالأيدولوجية الكريستوية في النص. فكل نص ليس له فضاء طليق، إنه مقيد منذ نشأته الأولى، ولا يبقى النص طليقاً بعد ميلاده بل إنه يتسبب للتشعب والتفرع حتى تحدث الحوارية والتعددية بين نص وآخر أو بين نصوص جمعاء.

٨٧- معنى "العودة" الرجوع، وهذا المعنى يشهد بعودة النص اللاحق إلى السابق في اتخاذ حيزه ومكانه. وهذه الظاهرة في نصية النص تدل على العودة النصية إلى الداخل وفي الحين نفسه إلى الخارج. هذا التداخل النصي تعبير عن التلاقح والتثاقف والتلاقح بين النصين، القديم والجديد، السابق واللاحق، المجهول والمعروف إلخ...

٨٨- عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير من البنوية إلى التشریحية Deconstruction: قراءة نقدية لنموذج معاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٤، ص ٣٢٥.

٨٩- محمود قاضي، الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط ١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٣٩.

قد تعرض لها الناقد الروسي ميخائيل ميخائيلوش باختين ثم جرى تطويرها على يد الناقدة البلغارية جوليا كريستيفا، وبعد ذلك على يد تودوروف (٩٠)، فالنص باختيني - كما تقدم - نص مختلف عن النص العربي. أما جوليا كريستيفا فإنها لم تتعرض لمفهوم "التناس" على الوجه المباشر بل إنها قد تناولت هذا المصطلح من خلال تعريفها للنص قائلة: "إن كل نص هو عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات. وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى" (٩١).

ولا يمكن تحديد هذا المصطلح عند كريستيفا إلا بإدماج مصطلحين آخرين، أيديولوجيم Ideologeme والإنتاجية Productive، فالأيديولوجيم يمثل "عملية تركيب تحيط بنظام النص لتحديد ما يتضمنه من نصوص أخرى، أو ما يحيل عليه منها" (٩٢). وبذلك يتكون "التناس" من اقتطاع وتحويل يقعان في تأطير نصية "النص". تقول جوليا كريستيفا عندما تصدت للحديث عن النص المغلق أنه يعود تعييده وتنظيمه إلى نقطة أساسية وهي الممارسة السميائية، وهذه الممارسة أمضت أساسا للقدرة الفعالة في نصية "النص" حيث لا يتحقق "النص" دون ارتباطه بتلك الممارسة، إنها تقول تجاه تلك الممارسة الفاعلة في تنضيد نصية "النص": "فإن النص ليس تلك اللغة التواصلية التي يقننها النحو. فهو لا يكتفي بتصوير الواقع أو الدلالة عليه. فحيثما يكون النص دالا (أي في هذا الأثر المتزاح والحاضر حيثما يقوم بالتصوير) فإنه يشارك في تحريك وتحويل الواقع الذي يمسك به في لحظة انغلاقه. بعبارة مغايرة، لا يجمع النص شتات واقع ثابت أو يوهم به دائما. وإنما يبني لمسرح المتنقل لحركته التي يساهم هو فيها ويكون محمولا وصفة لها. فعبّر

٩٠ - تزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov (١٩٣٩م) كان فيلسوفا فرنسيا (مواليد البلغارية في مدينة صوفيا Sofia)، سافر تودوروف إلى باريس للدراسات العليا في مجال نظرية الأدب، ومن هنا ذاع صيته في أقطار الأرض باعتباره فيلسوفا بنويوا، وقد عرف في كتاباته، مؤلفاته معظم المنظرين اللغويين والنقاد أمثال ميخائيل باختين الروسي ورومان جاكسون... وبالإضافة إلى ذلك إنه قدم عددا كبيرا من الأطروحات النظرية والفكرية حول الأسس النظرية لنظام الشعراء. وتحولت كتابات تودوروف حوالي ١٩٨٠م إلى مجال التاريخ والفكر السياسي... ومن أهم مؤلفاته: ميخائيل باختين: مبدأ الحوارية (Mikhail Bakhtin: The Dialogical Principle)، الأدب ومنظروه (Literature and its theorists) نظريات العلامة (Theories of the symbol)، ينظر:

Todorov, Tzvetan, (2001). *Frail Happiness: An Essay On Rousseau*. (Translators' introduction). Translated by John T. Scott and Robert D. Zaretsky, Published by The Pennsylvania State University Press, United States, of America. p. xi-xiii.

٩١ - الخطيئة والتكفير من النبوية إلى التشرحية Deconstruction: قراءة نقدية لنموذج معاصر، ص ١٥.

٩٢ - محمد عبد المطلب، قضايا الحدائثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص ١٤٧. وينظر: كريستيفا جوليا، علم النص، ترجمة:

فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، مغرب، ط٢، ١٩٩٧م، ص ٢١-٢٢.

تحويل مادة اللسان (في تنظيمه المنطقي والنحوي)، وعبر نقل علاقة القوى من الساحة التاريخية (في مدلولاتها المنظمة من موقع ذات المملفوظ...) إلى مجال اللسان ينقري النص ويرتبط بالواقع بشكل مزدوج، فهو يرتبط باللسان (المنزاح الذي خضع للتحويل) وبالمجتمع (الذي يتوافق مع تحولاته)"(٩٣).

ومن ثم يتحقق أن "النص" نسق سمائي، سيرورة عريضة، تبادل اجتماعي، تداخل ثقافي، ومن خطوات هذا الوصف السمائي إنها تتخذ النصية عبارة عن ممارسات سمائية عديدة عبر لسانية، ومن ثم أصبحت تلك النصية أساس "النص" لديها. إنها تشرح "النص" قائلة: "النص كجهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة بالربط بين كلام تواصل يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من المملفوظات السابقة عليه أو المترامنة معه"(٩٤). ثم تصف "النص" بـ: "الإنتاجية" أي أنه أثر ماضوية الماضي التي تتفاعل مع الشفرات اللسانية الداخلية والخارجية، الشظايا العديدة السابقة عليه واللاحقة له، فكأن "النص" يتراوح بين النصوص القديمة والجديدة، الغائبة والحاضرة، تلك النصوص القديمة تعني الأدوار التي تعيشها تلك الأنماط اللسانية عبر التاريخ والثقافة والحضارة والمجتمع والبيئة وهلم جرا. تقول جوليا كريستيفا: "فالنص إذن إنتاجية، وهو ما يعني:

أ- أن علاقته باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع "صادمة بناءة"، ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية لا عبر المقولات اللسانية الخالصة.

ب- أنه ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى مملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى"(٩٥).

ثم استخرجت من تلك الإنتاجية أمرا ثنائيا أساسيا تكشف سمات متميزة لظاهرة "النص":  
النص الظواهري/ الصوتي Pheno-text(٩٦) والنص التكويني/ الجيني Geno-text(٩٧). "إذ تقصد بالمصطلح الأول مستوى القول الملموس، وبالتالي جميع ما يحدث تحت هذه البنية الظاهرية. عندئذ يصبح النص نقطة التقاء ليس فقط بين منتج ومنتلقه، بل وأيضا بينه وبين النصوص المتعددة التي سبقته أو القريية منه والتي

٩٣- علم النص، ص ١٠.

٩٤- المصدر السابق، ص ٢١.

٩٥- المصدر السابق، ص ٢١.

٩٦- النص/ النسيج الظاهري أو الظواهري أو الصوتي، وهو النص الذي يقفر معناه إلى الذهن مباشرة أو بالقراءة العادية.

٩٧- النص/ النسيج التكويني/ الجيني، وهو البنية العميقة الذي لا يمكن فهمه أو التقاط مراده دون تحييص وإمعان ودقة.

تربطها به علاقات غير متوقعة ولكن فعلية" (٩٨).

تسترشد جوليا كريستيفا في بحثها حول "التناص" بالنقد السوسيونصي والنظرة التحويلية والسياق الاجتماعي وتحسب هذه العناصر جزءا من النص ذاته حيث تتقاطع فيه ومعه. وهذا المنهج السائد لديها في تمييز "النص" يعني أن "النص" يكون محولا ومتحولا، يكون آخذا ومأخوذا، يكون متطفلا ومتطفلا عليه، يكون آكلا ومأكولا... إلخ فالحوارية من وجهة نظرها لا تقف عند ذات النص ولا تقتصر على قائله، ثمة تجري الحوارية بين الذوات والنصوص معا، والمراد بالذوات ذهنيات محددة داخل النص وخارجه، وبذلك يتأكد أن الذات المبدعة لا تهيمن على النص بكامله، بل إنها تتنازل عن حقها الوجودي الكامل لصالح نصوص ذوات أخرى... يقول الدكتور سعيد بحيري: "ونؤكد مرارا على مسألة عدم إمكان وصف النصوص من خلال مقولات لغوية فحسب، بل يمتاز التحليل النصي عن غيره باستقائه مقولات غير لغوية تشكل أركانها جوهرية في بناء النظرية النصية، ويشكل في تصور تفكيك النص إلى مكوناته الجزئية ثم إعادة بنائها بصورة كلية أساسا من أسس بناء نظرية النص، وترى كريستيفا J.Kristiva أن النص أكثر من مجرد خطاب أو قول، إذ إنه موضوع لعديد من الممارسات السيميولوجية التي يعتد بها على أساس أنها ظاهرة شبه لغوية، بمعنى أنها مكونة بفضل اللغة، لكنها غير قابلة للانحصار في مقولاتها. وبهذه الطريقة فإن النص "جهاز عبر لغوي"، يعيد توزيع نظام اللغة بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية، مشيرا إلى بيانات مباشرة، تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة والمتزامنة معها. والنص نتيجة إنها هو عملية إنتاجية" (٩٩).

فقبل مجيء "التناص" وفعاليتها في التمييز النصي كان النص على وجه مألوف سابق وهو ارتباطه بالذات/ المؤلف/ القائل/ المنتج وقدرة الذات على النص وضبط المعنى الواحد وتثبيته، ولكن حينما ظهر مصطلح "التناص" في هذه الساحة النقدية التأويلية غير جذريا النظر إلى مفهوم "النص"، وجعله ذا تمرد وتقلب، يقول فليب سولرس Philippe Sollers عن "التناص": "كل نص يقع في ملتقى مجموعة من النصوص بحيث يكون هو الجامع بينها والمشكل لها ومكتفها ومحولها وعمقها على السواء" (١٠٠).

والنص العربي ولاسيما النص القرآني لا يقبل هذه الظاهرة النصية الكريستيفية وغيرها، وكذلك

٩٨- برونل، ب./ ماديلينا، د./ د.كوتي، و/م. جلبكسون، ج، النقد الأدبي، ترجمة: هدى وصفي، الهيئة المصرية لقصور

الثقافة، آفاق الترجمة، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م، ص ١٢٩.

٩٩- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، ص ١١٢.

١٠٠- التناص وإنتاجية المعاني، ص ٦٩.

لا يقبل "الاقتصاص القرآني" نصومية النص لابتعاده عن مثل هذه الافتراضات. كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾<sup>(١٠١)</sup> فالقرآن الكريم ليس في الواقع كتابا مكتوبا أو مؤلفا، ملفوظا أو محررا إنه منزل من رب العالمين تبيانا لكل شيء، مما يعني أن كل شيء مسطور في هذا الكتاب، وليس له خط آني أو تعاقبي لأن الجهات تستلزم الحدوث، والنص الإنساني حادث، بينما القرآن الكريم فإنه قديم وليس بحادث، فلا يستلزم الجهات وغيرها.

يعتمد مذاق "التناصر" ومغزاه على حال النص المتغير/المراوغ/المنتجج من خلال قطبيه: المنشئ والمتلقي وعلاقة التسريب/الإزاحة التي توصل بينهما. وفي تلك الحركة والمراوغة بات النص يتأثر بما سبقه من نصوص، استفاد منها المؤلف سواء ذكرها أم لم يذكرها، وما لحقه من نصوص تثقف بها القارئ حيث تتسم نصية نصه بـ: أصداء وأصوات، تبعث فيه حيوية التعددية، تشكله وتجسده في صورة "البيئانية" لكونها في حالة مستمرة لانهائية. ولا يمكن للنص أن ينتزع وجوده مما سبقه، لأن انتزاع الوجود يستلزم انتزاع الحالة المستمرة مما يؤدي إلى إقصاء جذور اللانهائية للنص التي تجعل النص مجموعة إفرزات ودلالات. فالنص الأدبي غير قابل للإغلاق لكونه دوما في حالة صيرورة، وكونه نتيجة عملية تشكيل مستمر حيث يقوم بتشكيل وخلق جسم آخر على أساس عملية تبادل وتفاعل فيه.

هذه محاولة التقريب بين طرفي "النص" الأكلة والضحية المأكولة ليست نتاج صدفة بل إن لها معنى يضبط كلا الطرفين بفحواهما ومن ثم يتلاحم النصان الجديد والقديم بفك بعضهما البعض، اللهم إلا أن التفكيكيين ذهبوا إلى توسيع العلاقة، ومن ثم تصبح النصوص القديمة مضيئة ومتطفلة على النصوص الجديدة، وبالعكس كذلك حيث تتطفل النصوص الجديدة أو تكون ضيفا تضيفه النصوص القديمة (السابقة)، وهذا ما يؤكد هيليس ميللر قائلا: "ورغم ذلك، فإن أي قصيدة متطفلة بدورها على قصائد، أو أنها تحتوي داخلها قصائد سابقة باعتبارها متطفلات، في صيغة أخرى لقلب ثنائية المتطفل والمستقبل. فإذا كانت القصيدة غذاء دسما للنقاد، فلا بد أنها بدورها قد أكلت. لا بد أنها كانت آكلة متوحشة لقصائد سابقة"<sup>(١٠٢)</sup>.

١٠١ - سورة النحل، الآية: ٨٩.

١٠٢ - Miller, Joseph. The Critic as Host. p. 446, Source: *Critical Inquiry*, Vol. 3, No. 3, (Spring, 1977),

pp. 439-447, Published by: The University of Chicago Press, Stable URL:  
http://www.jstor.org/stable/1342933, Accessed: 01/08/2008 08:58

وينظر: المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، ص ٢٠٧.

واللغة الشعرية في مدرسة كريستيفا، أو الروائية في مدرسة باختين... هي لغة رمزية، والعلاقة بينها اعتباطية، وهذا يتطلب دور القارئ ليقوم بالربط بين عنصري الرمز (الدال والمدلول) ويكتشف الدلالة في ذلك. والاعتباطية تحكم العلاقة بين الكلمة ومدلولها كـ: "لا شيء" فـ: "ليل" مثلا في قول امرئ القيس (١٠٣): [الطويل]

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم لبيتلي

تعني الليل المعروف أو إنه مجرد إشارة تثير في ذهن القارئ/ الباعث على تباين مشربه كل ما يمكن أن يتصور ويتخيل، وبذلك يمكن أن يتم إعطاء الكلمة حقها من القيمة الفنية والجمالية. والنتيجة المحدثة عن ذلك هي الحركة اللامتناهية لكل مستوى من مستوياته منذ لحظة إدراكه إلى أعلى فأعلى ما يتولد منه، وتستمر عملية التحول في هذه التجربة الجمالية من الدلالات الصريحة إلى الضمنية.

الدلالة الصريحة هي المعنى الذي تسوقه كلمات النص وجملة حسب مفهوم النظم الجرجاني، أما الدلالة الضمنية فهو ما يوحي به النص للقارئ حيث يمنحه من قيمة فنية ما تتطلبه تجربته من موحيات متتابعة. فالدلالة الصريحة جوهريّة ومحددة، يندر أن يختلف فيها إنسان عن آخر، وتكفي فيها مجرد المعرفة الأولية باللغة. والدلالة الضمنية تحتاج إلى معرفة ذوقية في اللغة وأدبها ليتمكن المرء من إدراكها.

فـ: كلمة "امرأة" معناها (بشر + بالغ + أنثى) هذه صفات حسية تمثل المعنى الصريح، ولكن المعنى الضمني لها تحمل عدة صفات مثل معاني الرقة والحنان والعطف والحب، هذه صفات نفسية واجتماعية، ومعاني كثرة الكلام وإجادة الطبخ وأعمال المنزل، هذه صفات نمطية، وصفات أخرى مفترضة لدى بعض الأفراد أو الجماعات تختلف من عصر لآخر، مثلما يقال: ربما ترمز الكلمة إلى معنى عدم التعليم في الماضي، أو الإهانة لدى بعض القبائل، أما عند الأفراد فمن الطبع كلمة "امرأة" تعني لعمر بن أبي ربيعة غير ما تعني لعباس محمود العقاد...

---

١٠٣ - شَبَّهَ ظلام الليل في هوله وصعوبته ونكارة أمره بأمواج البحر، والسدول: الستور الواحد منها سدل. والإرخاء: إرسال الستر وغيره، والابتلاء: الاختيار، والهموم جمع الهم بمعنى الحزن، وبمعنى المهمة، والباء في قوله: بأنواع الهموم بمعنى مع (يقول) ورب ليل يحاكي أمواج البحر في توحشه ونكارة أمره وقد أرخى علي ستور ظلامه مع أنواع الأحزان أو مع فنون الهم ليختبرني أصبر على ضروب الشدائد وفنون النوائب أم أجزع منها؟ ينظر: أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، لجنة التحقيق في الدار العلمية، بيروت، ١٩٩٢م/١٤١٣هـ، ص ٢٩.

ومن هذا المنطلق الأساسي يكون المعنى الضمني حادثا وليس جوهريا، غير ثابت حيث يتغير معناه من عصر لعصر، ومن شخص لآخر. أما المعنى الصريح فإنه يكون مغلقا لانبنائه من المعجم أي مقبرة المفردات وخزانة الكلمات، والسياق كـمبدء بنوي دلالي يؤدي دوره في تكثيف دلالات الكلمة، ويكون من مؤديات الاستجابة لمقتضيات التجربة الناتجة عن السياق الذهني المخزون في نفوسنا.

## الخاتمة

ثبت مما تقدم أن ثمة فروقا عديدة بين "الاقتصاص القرآني" و"التناص" الغربي، وفيما يلي عرض

النتائج التي توصل اليها:

- يحدث التناص من تلاقح وتوالد بين النصوص المحولة أو المتحولة بطريقة شعورية ولاشعورية، أما الاقتصاص فلا يحدث إلا بارتباط هادئ ليس فيه تحويل ولا تحول، ليس فيه تسريب ولا تسرب.
- يحتوي التناص على جميع النصوص عبر أداة التقاطع والتحويل الطبعي واللاطبعي، الشعوري واللاشعوري، أما القرآن الكريم فإنه نص متقاطع مع ذاته، ومتداخل مع نفسه، إنه ليس متقاطعا مع غيره، ومتاخلا مع آخر.
- النصوص القصصية أو الآي القصصية في القرآن الكريم ثابتة، لا تقبل أي تغيير وتحويل، بينما النصوص الفاعلة فيها التناصية أو النصوية فإنها تقبل تغييرا أو تحويلا.
- القصة نابعة من ثقافة، والقصة القرآنية كذلك إلا أن ما يجعلها معزولة عن القصة البشرية هو أن النص البشري لا يخلو من جدليات البناء النصي، صوتا وصيغة، لفظا وصورة، دلالة وفاعلة، منفعة، مؤثرة ومتأثرة، بينما النص القرآني يخلو برمته من هذه الجدليات البنائية.
- الاقتصاص القرآني مصدره رباني، بينما الاقتصاص البشري فمصدره تاريخ وزمان.
- لكل كلام منزع، فمنزع الكلام البشري هو الأداة الثلاثية، تاريخ وزمان ومكان، ومنزع كلام الله تعالى هو "الوحي" النازل من السماء بأمر ربه.
- إن "الاقتصاص" مصطلح نبت في سياق النص القرآني، ومن ثم أصبح مصطلحا دينيا في أصله، وأديبا في فرعه، بينما "التناص" فإنه صار مصطلحا أدبيا واجتماعيا وثقافيا في أصله وفرعه، ومن هذا المنطلق لا يصح أبدا أن يقاس أحدهما على الآخر دون مراعاة الظروف والأساليب والسياقات.
- اعتمد الباحثون في تحقيق شرعية "التناصية والبينصية" في التراث العربي على نص ابن فارس وغيره، وهذا الاعتماد ليس بدقيق بل إنه مبني على نظر سطحي لا يناسب إثبات التلاؤم الجزئي أو



التوافق الكلي بين نظرية أجنبية بحثة وبين مصطلح عربي أصيل بغض النظر عن الفروق الدقيقة والمفارقات المنهجية بينهما.

- أخذ "التناس" إشعاعياته الأولى من الكلاسيكية التي تعتمد على فلسفات أرسطو الأدبية ونظرية أفلاطون المثالية، واستفاد من الرومانسية بعض القواعد المنوطة بتحطيم قيود المحاكاة والاحتذاء والعودة إلى استرداد الطبيعة ثم اهتم بعناصر الواقعية وقضاياها في تصوير شكله، فمن الواقعية أخذ بعض ملامح الواقعية الاشتراكية من الرؤية الماركسية للأدب/اللغة، والقدرات الهائلة اللانهائية، وتجسيد وظيفة اللغة الإيحاء والترميز دون نقل المعاني والإفصاح والإبانة لعجز اللغة عن تعبير اللامادي المطلق/مدركات العقل الباطن/مكونات اللاشعور الغائمة، وموسيقى اللغة وجرس الكلمات وإيقاع الألفاظ التي توحى بل تنقل إحساسا ولا تنقل معاني. وربط الأدب/النص باللاشعور/العقل الباطن وإفلاته من العقل الظاهر/الشعور/الوعي والإدراك، وقد أثر علم النفس الفرويدي على هذه الفلسفة الرائدة في تشكيل مفهوم "التناس" ... ولاسيما ما جاء به دي سوسور في تشكيل فلسفة اللغة والكلام ونوعية العلاقات المتبادلة بين الدال والمدلول... والدلالة. أما الاقتصاص فلم يتم بناؤه على أسس النص الإنساني الذي يتغير من لحظة لأخرى، ويتحول من انفصام إلى ارتباط في نظر الكاتب، ومن انسجام واتزان إلى انفصام وانقطاع في نظر القارئ، فالقرآن الكريم بعيد عن هذه الانطباعات الفردية والجماعية.

تقرر أن القرآن الكريم كتاب الله تعالى، إنه ليس بنص لعدم إيفائه بالمقصود من النص الغربي، لأن النص في مضماره الأجنبي يقضي على قداسة كلام الله تعالى، ههنا تحدث دوائر بعد وافتراق بين النص القرآني والنص البشري.

### التوصيات

- ينبغي للباحثين الجدد اختيار موضوعات علمية دقيقة واعية تدور حول محاور علم النص ونحو النص وعلم الجملة ونحو الجملة وأشكال النص وأبعاده وأنماطه وأنواعه وأقسامه وأبوابه لتكون جهودهم هديا للقارئ المحدثين ولاسيما منارا للمقارنين بين تيارات النص العربي والغربي وردا على المهاجمين على النص العربي متهمين إياه بالعقم.

- بعد أن تقرر أن القرآن الكريم كتاب منزل من الله الواحد الأحد، فالخاندون عن الحقيقة ما زالوا يعترضون على صدق هذا الكتاب ويحاولون أن يجعلوه موضع شبهة وموطن طعن بين فينة

وأخرى، إنهم غيروا أساليبهم النقدية الموجهة إلى قداسة النص المبين، فيأتون إليه من كل فج نصي، فلا يمكن القضاء على هذه العدوانية النصية إلا بعقلانية عربية نصية تتمكن من المقارنة العادلة بين جوانب نصوصية النصين وإخراج النتيجة المقتصدة من خلالها للوصول إلى الحقيقة التي لا تميل إلى الباطل.

- ينبغي في الجامعات الإسلامية أن تضاف تخصصات النص الأصيل والمحدث إلى المقررات والمناهج السائدة في مرحلة البكالوريوس والماجستير وماجستير الفلسفة كيلا يعبت الباحث المتخصص بالموضوع في مرحلة لم تعهده سابقا.

- يرجى من الباحثين الجدد أن يتوجهوا إلى موضوعات عربية أصيلة تماثل النصوصية والتناص والتناصية في جوانب، وتباعدها في جوانب أخرى، فيضعوا دراسة واعية لإبراز وجوه التشابه والاختلاف بين الطرفين. ثمة موضوعات بلاغية كثيرة ولاسيما بعد أن لقي بعضها رواجاً وذبوعاً بين أوساط العلم من منظور تطورات نظرية "النظم" وتطبيقاتها في النص المقدس والنص المعاصر، فلا بد من تقديم دراسات جادة حيال موضوع النص والتناص الذي أمضى مثار جدال بين مبدعيه ومتلقيه من إطار عربية النص على وجه العموم وقرآنيته على وجه الخصوص.

\*\*\*\*